ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيَّن لنا : إياكم أن تنفضُّوا عن الرسول أو تغضبوه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدواً ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لتزيل عن ابنك خطراً . إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً .

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذى أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجىء هنا للرسول ﷺ ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما

يؤهله للرسالة [١]، وبمجرد أن نزل عليه الوحى امتلك اندفاعاً ذاتيـاً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسـول ﷺ المجيء ذاتيّاً ، ولكن هذا المجيء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة "جاء" .

وكلمـة ﴿ رَسُولٌ ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمـة "جـاء" تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عـملاً ، فهـو ﷺ يعشق الجهـاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن : لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول ﷺ نظرتكم إلى الأمور الشاقة التى تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل فى إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالى نعمه عليكم حتى وأنتم فى معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك [٢]، فلا تشكك ولا تتشكك . وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت - ولله المثل الأعلى - تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه فى بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدى ابنك ليعطيه الطبيب حقنة من الدواء الذى جعله الله سبباً للشفاء .

---

(١) لأن فطرته هى الخلق العظيم وتأدب بأدب ربه وعاش منفعلاً بالإيمان سمواً ، وبالفعل تفكيراً فى الله ، وبالنفس سكينة إليه وبالجسد حركة له ، وبالقلب توحيداً وحباً ، فكان المجيء ذاتياً بمعية الله . يقول الحق : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم] .

(٢) وهذا حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وهو أمر يحبه الله من عبده . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) . ويجب أن نفهم هنا أن الستر المقصود هنا ليس السكوت عن فجور من هو مقيم على معصية ، بل هو ستر معصية وقعت من إنسان وانقضت .

إذن : فلا تأخذ الأحوال بوارداتها عليك ، ولكن خذها بوارداتها ممن قدرها وقضاها ؛ وهو الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ معان متعددة ، فمرة يكون معناها بـ"من جنسكم" ، مثلما قال الحق عن حواء :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ① ﴾ [النساء]

أى : خلق حواء من نفس جنس آدم البشرى ، فلا يقولن أحد : كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً ؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس ؛ ولذلك يؤكد ﷺ على بشريته أكثر من مرة وفى مواقع كثيرة [1] . والقرآن يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فبشرية رسول الله ﷺ لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله ؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس ؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة . ولذلك قال سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ... ⑥ ﴾ [فصلت] . وقد أكد الرسول ﷺ على هذا المعنى كثيراً جداً ، منها :

– فعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

– وعن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنى اشترطت على ربى عز وجل ، أى عبد من المسلمين سببته أو شتمته ، أن يكون ذلك له زكاة وأجراً » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٢) وأحمد فى مسنده (٣ / ٣٩١ ، ٤٠٠) .

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

وقوله الحق : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من جنس العرب ، ولم يأت به من الروم أو من فارس ، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من نفس القبيلة التى تنتمون إليها معشر قريش .

أو أن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعنى : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض ؛ ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض . ولقد سميتموه الصادق الأمين ، والوفى ، وكلها مقدمات كانت توحى بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله . وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم ، فمجيئه كرسول إنما يرفع من ذكركم ، ويعلى من شأنكم . فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة فى البيت الحرام ، وقد جاء محمد ﷺ ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته ﷺ سادة البيت ، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾ [الزخرف]

فهو نبى للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها ، لكن الله لم يشأ ذلك ؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها كل قبائل العرب فى أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهابة هائلة ؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها فى

أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أى قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف فى مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها .

وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتى السيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾[1] [الفيل]

وأتبعها بقوله :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتى أمره فى الآية التالية :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد ﷺ رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة الجزيرة الذين تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته فى آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتى منها النصرة .

---

(١) كعصف مأكول : له معنيان : أحدهما : أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبّ وبقى هو لا حَبّ فيه . والآخر : أنه أراد أنه جعلهم كورق النبات الذى أكلته البهائم ثم راثته . وكلاهما فى لسان العرب (مادة : ع ص ف) .

فلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا : جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول : إنه رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف ؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد ﷺ هو السبب فى العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أى : مرسل من الله و﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشيء من عنده ، بل كل البلاغ الذى جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذى خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض . وسبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..(٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله فى الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذى جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خيره قبل أن يأتى لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذى أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو ﷺ لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم فى الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غباء الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

أى : إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً فى صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذن : فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم فى العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنفع الأسوة ؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أوالروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتى الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد ﷺ بالأنس والألفة ؛ لأنه من قريش التى لها بطون فى كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن : فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فاستصحبوا كل هذه الأشياء؛ لتردوا على أنفسكم: هو بشر وليس مَلَكاً. هو من العرب

وليس من العجم . هو من قبيلتكم التى نشأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر فى حق البشر . أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكى هذه الآية : ﴿ مِنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ أى : أنه ﷺ بالمقياس البشرى هو من أقدركم وأحسنكم [١] . ولذلك حينما جاء الرسول ﷺ بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها بمعجزة ؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتى له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاً منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضى .

وحينما قال لخديجة : " يأتينى ويأتينى ويأتينى " وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمنا مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ،مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هى دونه فى العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زواج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففى فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التى تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُربِّت عليه .

فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال ﷺ لخديجة لشكت فى قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القضية استعراضاً عقلياً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذى يأتينى رئى [٢] من الجن . قالت

---

(١) لذلك اختصه الله بصفات حسية ومعنوية تحيله من أنفس خلق الله على الله ، يقول الحق : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) رئى من الجن : تابع قد ألفه الإنسان من كثرة رؤيته له . وقد تكون من الرأى أى أنه صاحب رأيه . وانظر اللسان (مادة : رأى) .

له : " إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً "[1].

إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة .

وكذلك أبو بكر رضى الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعى أنه رسول . قال : أهو قالها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره[2].

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ . وكلمة ﴿عَزِيزٌ﴾ أى : لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أى نادر الوجود . وقد تقول لإنسان : " قد تكون وزيراً " ؛ فيصمت رجاء، لكن إن قلت له : "ستصبح رئيس وزراء" فيقول: هذه مسألة مستعصية وكبيرة علىّ بعض الشيء .

إذن : فالعزة تأتى لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعزيز - هو الأمر الذى يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : "عز علىّ أن أصل إلى قمة الجبل " . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أى : شاق عليه أن يعنتكم بحكم ؛ فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتى لكم بالأحكام

(١) ذلك أن رسول الله ﷺ بعد ما جاءه جبريل فى غار حراء، رجع إلى السيدة خديجة ترجف بوادره فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : «أى خديجة مالى » وأخبرها الخبر . فقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت له : كلا . أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ومسلم (١٦٠) عن عائشة . بوادره : اللحمة التى بين الكتف والعنق دلالة على شدة الفزع . زملونى : غطونى . تحمل الكَلّ : أى : تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق . تقرى الضيف : أى : أنك كريم جواد تطعم الضيف . نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

(٢) عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال عن أبى بكر : « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ » (مرتين) إنى قلت : « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٦١، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

لكى تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبى ﷺ « مثلى كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبونى تقحمون فيها [1] » .

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفُسكم أو من أنفَسكم أو يحبكم حبّاً يعز عليه أن تكونوا فى مشقة . إذن : فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأى فيها ، وذلك هو القانون التربوى الذى يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : " افعل كذا " و" لا تفعل كذا" لا تذهب إلى المكان الفلانى ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت من أبيك الذى تعرف حبه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر . وانظر إلى والدك الذى تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى بأن تسمع كلامه .

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات فى الدنيا تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلد

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) بروايات متعددة ، عن أبى هريرة . ومعنى (آخذ بحُجُزكُم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فى الآخرة ؛ لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يرهق حقاً ويتعب [(١)] .

ولذلك يقول الحق فى تصوير هذه المسألة بقوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ [(٢)] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تورد ثماراً .

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وارْوِ ؛ كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك . ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر ، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لمغبة [(٣)] الضياع .

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أن يجرى للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن

(١) ومن دقيق ما نقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٦/ ٤٦٤) عن أبى حامد الغزالى فى الفرق بين تهافت الفراش على النار وتهافت العصاة على الوقوع فى النار أنه قال : (التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبداً) .

(٢) باخع نفسك : أى مكثر فى لومها وقهرها .

(٣) المغبة من كل شىء عاقبته وآخره .

هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو ممن تعز عليه وممن تحبه وممن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك ؛ فعليك أن تقبل ولا تسيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء - مثلاً - فهو يرد عنك مصارف الشر ؛ لأنك إن اجتهدت فى عملك ؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرَّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عامّياً يلخص الحكمة التى تقول «من يأكل لقمتى فليسمع كلمتى» .

وهنا يقول الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية ؛ حتى لا تقعوا فى المشقة الأكبر . ولذلك قلنا : إن الرسول ﷺ قد صوَّر هذه المسألة بقوله ﷺ : «مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار - أى أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار - وأنتم تفلتون من يدى»[1] .

والحق يُسَرِّى عن رسوله ﷺ فيقول :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ... ﴿٦﴾﴾ [الكهف]

ويقول الحق أيضاً لرسوله :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]

---

(١) هذه رواية عند مسلم من حديث جابر (٢٢٨٥) ، وقد سبق تخريجه من حديث أبى هريرة عند البخارى ومسلم .

فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى إتقان العمل فى الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة فى الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه ﷺ ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد فى الآخرة ، ولذلك قال الحق:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝﴾ [الشعراء]

أى: إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخشع.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان فى المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منافع . وسلب المضرّات - دائماً - مُقدّم على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقدم على العمل لدرء[1] ما يضر ، ثم ننجز العمل النافع.

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت فى حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذى يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذى يزيد من الارتقاء.

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّى: هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة ، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تنشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة.

(١) الدرء : الدفع والإبعاد .

ومثال آخر : هب أنك ترى إنساناً يغرق أمامك فى البحر ، فهل توبخه ؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم ؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله ؟

إنك تنقذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبته فهو يقبل منك العقاب أو النهر [1] ؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت .

والحق يقول : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥)﴾

[آل عمران]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففى هذا سلب للمضرَّة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان فى موقعه لا هو فى الجنة ولا هو فى النار ؛ فهذا هين أيضاً . وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله .

وإذا كانت هذه هى بعض من خصال الرسول ﷺ : ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ، و﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ، و﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ، و﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [2]﴾ ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول .

وقوله الحق : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ نرى فيه الوصف بـ «الرءوف» والرأفة هى سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة ، و«رحيم» هو الذى يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء .

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين

(١) النهر : الزجر والإغضاب .
(٢) والآية الكريمة تعطى الوداد مع الله ومع رسوله ومع النفس والود عين القرب .

الوصفين [١] ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾ [النحل]

إذن : فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مستمدة من رأفة العلى الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مستمدة من رحمة العلى الأعلى. وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً ﷺ بعضاً من الصفات التى عنده ، فكما يبلغكم المشقات فى التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات فى الرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝٨٢ ﴾ [الإسراء]

ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أى : أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتى لنا بالمنفعة بعد ذلك وهى الرحمة.

وقوله الحق : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا القول خلاصته : إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله ﷺ ؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهى بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم [٢] .

---

(١) وقد أورد القرطبى فى هذا قول الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى محمد ﷺ فإنه قال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ ﴾ [التوبة] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ ﴾ [الحج] . انظر [تفسير القرطبى ٤/٣٢٢٨] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قاله الهيثمى فى المجمع (١٠/٤١٤) .

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا فى حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التى كانوا يقومون بها لأنفسهم؛ فالثرى الذى كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذى كان يبني بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبنى له ، وكل الأعمال التى تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه، صار يستأجر من يقوم له بها، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش فى رضا الله وبأسرار كلمة ﴿كُن﴾.

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء فى هذه السورة بمشقات التكليف، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بأن الرسول ﷺ يتميز بكل المواصفات الموحية: من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التى تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم.

فإن استمعوا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم فى معسكر الإيمان، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن - يا رسول الله - أنك منصور بهم؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك [١] وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد [٢] هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله:

---

(١) تولوا : أعرضوا ورفضوا الهدى . والتولى : من أسماء الأضداد أى : أنها تحمل المعنى وضده . قال تعالى : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. (٣٨)﴾ [محمد] أى : إن تعرضوا عن الإسلام . ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .. (٥١)﴾[المائدة] أى : من يتبعهم وينصرهم .

(٢) الركن الشديد : القوى الذى لا يغلب من التجأ وركن إليه . ومنه قوله عز وجل عن لوط عليه السلام ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾ [هود] وعنه قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٣١١٦) من حديث أبى هريرة .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ولم يقل الحق لرسوله : «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله »[1] لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل فى إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيمانى بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ؛ فسوف يعاقبه الله.

وحين تعلن: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التى سوف تأتى بعد إعلانك ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ستؤكد أن حسبك فى مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى - أنت تقول : «حسبى نصرة فلان»؛ لأنك تثق فى قدرة فلان هذا، ولكن القوة فى الحياة أغيار ، وحين تقول : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه فى هذا أو فى غيره.

وقل : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ برصيد ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ ، و ﴿ لاَ إِلَهَ ﴾ نفى ، و ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إثبات ، إذن : ففى هذا القول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفى منطقى مع سلب ، وإثبات منطقى مع الإيجاب ، وهنا نفى أىّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[2] شاعر باكستان الكبير ، فقال:

إنّما التوحيدُ إيجابٌ وسلبٌ فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب فى ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ ، وسلب فى ﴿لاَ إِلَهَ﴾ ، فيهما للنفس عزم ومضاء، أى: هما للنفس قطبا الكهرباء ، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله.

---

(١) الحسب : اسم بمعنى كاف . وحسبى الله ، أى : يكفينى الله .

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامى جاهد بقلمه ونفسه فى سبيل الإسلام وتحرير بلاده ، وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس فى المؤسسات العلمية ، وهو باكستانى المنشأ إسلامى الوطن ، عالمى الفكر - ترجم له فى مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوى شعلان .

والناس - كما نعلم - ثلاثة أقسام: قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً، وهم الملاحدة ، وقسم ثان يقول : إن هناك الله الذى يوحده المسلمون ؛ لكن له شركاء ينفعوننا عند الله. وقسم ثالث يقول بوحدانية الله.

وساعة نقول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله ، وأثبتنا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا أمر طبيعى، ويمكن أن نعرفه بالحساب؛ ولذلك جاء بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب. واحسبها فلن تجد إلا الله. وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو ، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدى رسولك، الذى أبلغك البلاغ الكامل عن الله، وأن تتوكل عليه سبحانه.

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو، والواجب يفرض عليك أن تظل فى مَعيَّته سبحانه، ومعيّة الله مرحلتان: الأولى بأخذ الأسباب التى أمدّ بها خلقه، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى - مثلاً - الناس وهى تحتاج إلى المياه ؛ لأنها ضرورة للحياة ؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر ؛ لأن المياه التى تأتى من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ، ولماذا ؟ لأن المخزون من ماء المطر الذى كان يأتى من أعالى الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد ، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء ؛ لتجرى إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر.

وإذا جفّتْ الآبار المحيطة بنا، هل نيأس؟ لا ؛ لأن ربنا بيّن لنا : ارفعوا [1] أيديكم لربكم . إذن: فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة له والإيمان به تجدون الإجابة مع الرشاد .

المسبب، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه، ويلجأ إلى الله فيرده.

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب ، ويقول: أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها، وبعد ذلك يقول: ليس لى ملجأ إلا أنت سبحانك ، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. ﴿٦٢﴾﴾ [النمل]

والمضطر: هو من استنفد أسبابه، وليس له إلا الله. لكن أن يقول إنسان: أنا أدعو الله ليل نهار وأسبِّحُه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائى [1]. ونقول لمثل هذا القائل: أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، خذ بالأسباب التى خلقها الله ، أولاً ، ثم ادعُ بعد ذلك . ولا تدعُ إلا إذا استنفدت الأسباب ؛ فيجيبك المسبِّب ؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمتنع الأسباب ؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطى كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب، والحق سبحانه يقول:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى من يحرث ويبذر ويروى ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتى موجة حارة تميته ، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً فى بالك ، وهنا يصح توكلك على الله.

---

(١) من آداب الدعاء ألا يستبطىء الداعى استجابة الله لدعائه ، فتجده يمل ويدع الدعاء ، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصلح لعبده ، فقد يدعو عبد بما يظن أنه خير له ، ولكن علم علام الغيوب أنه شر له ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ ، قال يقول : قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحديث .

وكثير من الناس يخطىء فى فهم كلمة «التوكُّل» ، وأقول : إن التوكل يعنى أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التى خلقها سبحانه فى كونه ، فإن عزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده فى حياتنا حين يقول الابن لأمه : «ادعى لى حتى أنجح» وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هى : «ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة» ، وهى بذلك تدل ابنها على ضرورة الأخذ بالأسباب.

إذن: فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التى مَدَّتها يد الله إليك. فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه.

ومثال آخر : إذا كنت سائراً فى الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك فى البيت أو فى البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان فى البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان فى البيت عشرة جنيهات وفى البنك مائة جنيه ؛ فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن: فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب[1] . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب.

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق] .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب فى الآية فيقول: توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق، ستجد أن الإنسان إن قال: «أنا اعتمدت عليك» فقد تعطف قائلا : «وعلى فلان وعلى فلان». لكن قولك: عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق، مثلما تقول فى الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أى: لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه.

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذى استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت فى الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذى استقبلك، وأصبح هذا الكون مسخراً لك، وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون.

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفى قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك. ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ، وليست فى قدرتك ؛ فالشمس مُسخَّرة لك ؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس فى قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك.

وربك ورب الكون الذى استقبلك سخر لك ما ليس فى يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذى يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذى يدير كل هذه الأشياء . فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبِّبات العطاء فى ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أى ظاهرة كثير.

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم،هو رب الكون الذى استقبلك وسخر لك ما فى يدك وما ليس فى يدك،وما وراء المرئيات من

عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شىء، وكل ما فى الكون ملك لله.

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف[1] ، فحين تبنى دوراً واحداً تصنع له السقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمبانى تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمى الجدران من عوامل التعرية.

وقول الله سبحانه : ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ معناها: استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً فى ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

العرش، إذن، رمز السيطرة، وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد أن الذى يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ فى تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛حتى تستقر له الأمور، ثم يجلس بعد ذلك على العرش.

إذن: فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك الأعلى.

وسبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ... (٧) ﴾ [غافر]

وساعة تسمع كلمة «العرش» خذها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ، وأن كل شىء دخل فى حيِّز قدرته ، وفى حيِّز ﴿كن﴾، كما يستقر الأمر

(١) العرش: المُلْك ، واستوى الملك على عرشه : أى : ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾[النمل] ومنه أيضاً سقف البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها معان تدل على استقرار الأمر وثباته . انظر اللسان (مادة : عرش).

للملك المحَسّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه فى الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف]

أى: أن الأمور قد استتبت له. وهكذا نجد أن كلمة «الْعَرْش» وردت فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا [1] ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شىء ولا يخرج من ملكه شىء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة «كن» ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى.

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ:

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [2] (٢٣) ﴾ [النمل]

أى: بمقاييس البشر.

أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ؛ لذلك نفهمه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ..(١١) ﴾ [الشورى]

---

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه .

(٢) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت .